﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغۡرِبَ ٱلشَّمۡسِ وَجَدَهَا تَغۡرُبُ فِي عَيۡنٖ حَمِئَةٖ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوۡمٗاۗ قُلۡنَا يَٰذَا ٱلۡقَرۡنَيۡنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمۡ حُسۡنٗا ٨٦﴾ [الكهف: 86]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لما قَبْلَها:

قصّةُ ذي القرنَيْن سياقٌ تتلاحقُ فيه الأحداثُ في مشهدٍ مُتماسكٍ بديعٍ

مناسبةُ هذه الآياتِ الكريماتِ لما قبْلَها أنّها بيانٌ لأولَى غزوات ذي القرنيْن، في سبيل الله تعالى بعد أن بيّنتِ الآياتُ السّابقةُ، أنّ الله تعالى قد مكّن له الأسبابَ الموصّلةَ إلى تحقيقِ هدفِه، بما يسّرَ له منَ الأسبابِ، وما أعْطاه مِن مُكْنةٍ على الغِلابِ، فأخبر تعالى أنّه مَكَّن له في الأرض بالمُلك والسّلطانِ، وأعطاه من كلّ شيءٍ يُعينُه على فتوحاتِه في الأرض، وقد بلغَ المشارقَ والمغاربَ لنشر العدلِ الغامرِ، وبذلِ الخيرِ الآسرِ، واستثمارِ الفُرصِ المُتاحةِ؛ لبثِّ منهجِ اللّه، واغتنامِ ما أباحَه اللّه وأعطاه جلَّ في عُلاه.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مَغۡرِبَ﴾: (غرب) أصل يدلّ على البُعْدِ، فالغُربة: البُعْدُ عن الوطنِ، يُقالُ: غَرَبَتِ الدّارُ، أي: ابتعدت، ومنه غُروبُ الشَّمسِ، كَأَنَّهُ بُعْدُها عن وجه الأرضِ، وشأوٌ مُغَرَّبٌ، أَيْ بَعيدٌ، ويُقالُ: اغْرُبْ عَنّي أَي تباعَدْ[1]، والمَغربُ في الأَصل: مَوْضِعُ الغُروبِ ثُمَّ استُعْمِل في المصدرِ والزَّمانِ، وقياسُه الفتحُ، ولكنِ استُعمِل بالكسرِ كالمشرقِ والمَسجدِ[2]، والمُرادُ به في الآية: مكانُ مَغْرِبِ الشَّمسِ من حيثُ يلوحُ الغُروبُ.

2) ﴿حَمِئَةٖ﴾: الحَمأَةُ والحَمَأُ: الطّينُ الأَسود المُنتن، ويُسَمَّى

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (غرب).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (غرب).

الطين الذي نبث من النّهر: الحَمأَة[1]، يُقال حَمِئَ الماءُ حَمأً وحَمَأً خالَطَتْهُ الحَمأَةُ فكَدِرَ وتَغَيرت رائِحَتُهُ[2]، وكذلك: حَمِئَتِ الركيَّةُ فهيَ تَحْمأُ حَمَأً إذا صارَت ذات حَمَأٍ، وأَحْمَأْتُها أَنا إِحْماءً إذا نقيتُها من حَمَأَتِها، وعينٌ حمئة: ذات حَمأَة[3]، والمقصودُ بالحمأ في الآية: الطّينُ إذا اشتدَّ سوادُه وكُرِهَتْ رائحتُهُ.

3) ﴿تُعَذِّبَ﴾: (عذب) أصل يدلّ على العَذْبِ، وهو: المَنْعُ، يُقالُ: عذَّبْتُ عَنْهُ الماءَ، أيْ: مَنَعْتُهُ عَنْهُ، وسُمِّيَ العَذابُ عَذاباً؛ لأنّه يَمنَعُ الشَّخْصَ مِن الرُّجوعِ للْجَريمَة[4]، والعَذابُ: الضَّرْبُ بعَذْبَةِ السَّوْطِ، أيْ: طَرَفِها[5]، والعَذابُ أيضًا: الإيلام والإيجاع الشَّديد، وقد قيل: إنَّ أَصْلَهُ الإعْذابُ، مَصْدَرُ أَعْذَبَ إذا أَزالَ العُذوبَةَ؛ لأنَّ العَذابَ يُزيلُ حَلاوَةَ العَيْشِ فصيغَ مِنْهُ اسمُ مَصْدَرٍ بحَذْفِ الهَمزَة[6]، والمُرادُ بالعذاب في الآية: الإيلامُ والإيجاعُ الشَّديد.

4) ﴿حُسْنًا﴾: (حسن): أَصْلٌ واحِدٌ، فالحُسْنُ ضِدُّ القُبْحِ[7]، والحَسَنُ: نعتٌ لما حَسُنَ، تَقول: حَسُنَ الشَّيءُ حُسْنًا[8]، والإحْسانُ: الإتْيانُ بما هو حَسَنٌ، يُقال: أَحْسَنَ فُلانٌ، يُحْسِنُ، إحساناً، أي: أَتَى بشَيْءٍ حَسَنٍ، والحَسَنُ أيضًا: ما كانَ مَحبوبًا عندَ المُعامَلِ به ولَم يَكُنْ لازِمًا لفاعِلِه، وأَعلاهُ ما كانَ في جانِبِ اللّه تعالى، ودونَ ذَلِكَ التَّقَرُّبُ إِلَى اللّه بالنَّوافِلِ[9]، والمقصودُ بالحُسْنِ في الآية: مبالغةٌ في الإحسانِ، وفيها تلقينٌ لاختيارِ أَحدِ الأمرينِ المُخيَّرِ بينهما[10].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

معنى الآياتِ الكريماتِ أنّ ذا القرنيْن سار بجيشِه حتّى بلغ مغربَ الشّمس، وأنّه وجدَ الشّمسَ حين تغيبُ كأنّها تغيبُ في عينٍ مسودّةٍ، بحيث تغربُ في البحر في عينٍ من طينٍ

(1) الخليل، العين، وابن منظور، لسان العرب: (حمأ - حمو).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (حمو).
(3) الأزهري، تهذيب اللغة: (حمأ).
(4) النووي، تهذيب الأسماء واللغات: 4/ 10.
(5) الراغب، المفردات: (عذب).
(6) الخليل، العين: (عذب)، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/ 258.
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حسن).
(8) الخليل، العين: (حسن).
(9) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 255.
(10) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 27.

أسودَ، وهذا توصيفٌ لمدَى بلوغ ذي القرنيْن، بما يُجلّي المكانَ بوضوحٍ ونصاعةٍ تجعلُ قرائنَ التّحديد للجهةِ المقصودةِ مُبرزةً لها بدقّةٍ، كما وجدَ في جهة مغيبِ الشّمس قومًا كافرين، ففوّض الله تعالى إليه الحُكمَ فيهم: إمّا بالعقوبة لمَن يصرُّ على كفرِه، ولا يقبلُ الإيمانَ بالله تعالى، وإمّا أن يَرفقَ بهم، ويُحسنَ إليهم، "بأن يأمرَ بتعليمِهم طريقَ الهدى والرّشاد، ويُبصرَّهم بأحكام الشّرائعِ والقوانين"[1].

أولياءُ الله ﷻ لهم عندَه كراماتٌ ظاهرةٌ، وعطاءاتٌ باهرةٌ

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ الاستئنافِ في الآية الكريمةِ:

﴿حَتَّىٰٓ﴾ هنا ابتدائيّةٌ استئنافيّةٌ، وسرُّ الاستئناف في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغۡرِبَ ٱلشَّمۡسِ﴾ عمّا قبله، أنّها جاءت استئنافًا بيانيًّا، إذ إنّ إتّباعَ سببٍ مبهم، يثيرُ في النّفس سؤالًا يقول: وإلى أين توجّه ووصلَ؟ فجاءتِ الإفادةُ بأنّه توجّه نحوَ الغروب، ورأى هناك مغربَ الشّمس، و"كأنّه أراد وطلبَ أن يَعرف أين تغربُ؟ حيث قال: ﴿وَجَدَهَا تَغۡرُبُ فِي عَيۡنٍ حَمِئَةٖ﴾"[2].

القصصُ القرآنيُّ سياقٌ مُتماسكٌ، كأنّه بنيانٌ مرصوصٌ

معنَى ﴿حَتَّىٰٓ﴾ ودلالتُها في الآية الكريمةِ:

﴿حَتَّىٰٓ﴾ في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغۡرِبَ ٱلشَّمۡسِ﴾، "حرفُ غايةٍ وجرٍّ"[3]، يُصرّحُ بمبتدأ انتهاءِ الغايةِ التي أمَّها ذو القرنيْن، وأنّها في هذا الموضع، وأنّه "ما زال يسيرُ في البلاد ويفتحُها، حتّى بلغ أقصَى عمارةِ الأرض، ورأى هناك ماءً عظيمًا كدرًا"[4]، وذلك "ناحيةَ المغرب، وهو مغربُ الأرض، وأمّا الوصولُ إلى مغرب الشّمس منَ السّماء فمتعذّر"[5]، ولعلّه كان يريدُ أن ينتهيَ إلى آخرِ ما يمكنُ لأحدٍ

القائدُ الفذُّ يأخذُ منَ البلدانِ بالنّواصي حتّى يبلغَ الأقاصي

(1) أسعد حومد، أيسر التّفاسير، ص: 2226.
(2) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنة: 7/ 205.
(3) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/ 22.
(4) الكرمانيّ، لباب التفاسير، ص: 1294.
(5) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 5/ 191.

الوصولُ إليه، "بحيث لا يتمكّنُ أحدٌ من مجاوزتِه، ووقفَ على حافّة البحر المحيطِ الغربيِّ"[1]، فالتّعبيرُ هنا بـ ﴿حَتَّىٰٓ﴾ يوحي بأنّه لم يوقفْه شيءٌ، حتّى بلغ أقاصيَ الأرض، وذلك مظهرٌ من مظاهر التّمكينِ الّتي هيّأ اللّه لذي القرنيْن أسبابَها، ومعلومٌ أنّ مَن أيّدتْه قدرةُ اللّه العليا، فإنّه واصلٌ لا محالةَ للمُبتَغَى، وإن طالت به المسافةُ، وشقَّ عليه الوصولُ إلى المأمولِ، ذلك أنّ اللّه سوف يُذلّلُ له الصّعابَ، ويَطوي له الأرضَ طيًّا، حتّى يبلغَ منها ما لم يبلغْه غيرُه، بمعجزةِ اللّه الخارقةِ.

دلالةُ التّعبيرِ بـ﴿إِذَا﴾ دون (إنْ):

آثرَ النّظمُ الكريمُ تقييدَ بلوغِ ذي القرنيْن مغربَ الشّمس، بـ ﴿إِذَا﴾ دون (إن)، مراعاةً لمعنى القطعِ ببلوغِه ذلك المكانَ المترامِيَ، من كوكب الأرضِ، ممّا يؤكّدُ قوّةَ عزيمةِ ذي القرنيْن، وحرصَه على إكمالِ مهمّةِ الدّعوةِ إلى اللّه تعالى إلى أقاصي الأرضِ.

من صفاتِ القائدِ الموفَّقِ إكمالُ المهامّ بحسَبِ الأسبابِ المتاحةِ

سرُّ التّعبيرِ بالفعلِ الماضي ﴿بَلَغَ﴾:

التّعبيرُ بصيغةِ الماضي ﴿بَلَغَ﴾ في جملة الشّرط: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغۡرِبَ ٱلشَّمۡسِ﴾ يُقرِّرُ تَحقُّقَ هذا الشّرط، وأنّ ذا القرنيْن قد جدَّ في الأمر، وتجاسَرَ عليه، حتّى انتهى فِعْلًا إلى هذه النّقطة منَ الأرض، وهي الّتي لا مطمَحَ في تجاوُزِها لأحدٍ، حتّى ذلك الزّمانِ، وأنّه قد "﴿بَلَغَ﴾ موضعًا منَ المغرب، لم يبقَ بعدَه شيءٌ منَ العُمران"[2]، وممّا يدعَمُ هذه الدّلالةَ ويؤازرُها إيثارُ التّقييد بأداة الشّرط ﴿إِذَا﴾، وقد آثرَ النّظمُ مادّةَ البلوغ في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغۡرِبَ ٱلشَّمۡسِ﴾ دون غيرِها، ممّا يقاربُها في الدّلالة ليُؤكّد غائيَّةَ الوجهة، وأنّ بلوغَ هذه النّقطة منَ الأرض كانت منتهى غايةِ بلوغِه، أمّا مادّةُ الوصول – مثلًا – فلا تُعطي هذه الدّلالةَ المقصودةَ لسياق الأحداثِ.

الدّاعيةُ المتفاني يطمحُ إلى إيصال دعوتِه إلى أقصَى غايةٍ تُتاحُ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 242.
(2) الخازن، لباب التّأويل: 3/ 176.

سرُّ التّقييدِ بالظّرفِ مضافًا إلى الشّمس:

المرادُ بمغرب الشّمسِ نهايةُ العُمران المبَصَرِ بالعيانِ

قولُه تعالى: ﴿مَغۡرِبَ ٱلشَّمۡسِ﴾، هو "مكانُ مغربِ الشّمس، من حيث يَلوحُ الغُروب من جهاتِ المعمورِ من طريق غزوتِه أو مملكتِه، وذلك حيثُ يلوحُ أنّه لا أرضَ وراءَه، بحيث يبدو الأفقُ من جهةٍ مُستبحرةٍ، إذ ليس للشّمس مغربٌ حقيقيٌّ إلّا فيما يلوحُ للتّخيّلِ، والأشبهُ أن يكون ذو القرنيْن قد بلغَ بحرَ الخَزَر، وهو بُحيرةُ قزوينَ؛ فإنّها غربَ بلادِ الصّين"[1]، فـ "المرادُ بمطلع الشّمس ومغربِها ابتداءُ العِمارة وانتهاؤها"[2]، لا مغربُها ومطلعُها حقيقةً.

سرُّ تعريفِ ﴿ٱلشَّمۡسِ﴾ بـ(أل):

مَنْ علت هِمّتُه في الهدايةِ؛ بلغَ من مطمحِه أعظمَ غايةٍ

التّعريفُ في ﴿ٱلشَّمۡسِ﴾ للعهدِ الذّهنيّ، أي: ﴿ٱلشَّمۡسِ﴾ المعروفةُ المعهودةُ لديكم يا محمّد؛ فالذّكرُ الحكيمُ يوجّهُ أنظارَ الأمّة إلى مطمحِ أهلِ الهممِ في الدّعوة إلى الله تعالى وفتحِ البلاد وهدايةِ العباد، والأخذِ بحُجَزِهم إلى الله تعالى.

سرُّ تقديمِ ﴿مَغۡرِبَ ٱلشَّمۡسِ﴾ على مطلعِها:

البدءُ بالأقربِ في الدّعوة رعايةٌ لحقِّ الجوارِ

لعلّ قصْدَ بلوغِ المغربِ ابتداءً؛ لأنّه أقربُ إليه، وقد أشار صاحبُ (زهرة التّفاسير) إلى أنّ اتّجاهَ ذي القرنيْن في سيره إلى غرب بلادِه ابتداءً، بسببِ أنّها الأقاليمُ الّتي تُصاقبُه، ومعلومٌ أنّ الحاكمَ العادلَ يؤمِّن أرضَه من جيرانِه أوّلًا، ثمّ يتّجهُ إلى ما بعدَها شيئًا فشيئًا، حتّى يصلَ إلى أقصى ما تُتيحُه له إمكانياتُه وقوّتُه، وهو ما فعلَه، هذا الملكُ البصيرُ بأصول الدّعوةِ، ومتطلّباتِ الواقعِ، واستراتيجيّات الحروب[3]، وقيل: لمراعاةِ الحركةِ الشّمسيّةِ، وليس ذلك لكوْنِ جهة المغربِ، أفضلَ من جهة المشرقِ - كما زعمَه بعضُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 25.
(2) الماورديّ، النّكت والعيون: 3/ 340.
(3) محمّد أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4579.

المغاربة – فإنّه – كما قال السّيوطيّ: لا قطْعَ بتفضيل إحدى الجهتَين على الأخرى لتعارضِ الأدلّةِ"[1].

دلالةُ الفعلِ الماضي ﴿وَجَدَهَا﴾:

القائدُ الحصيفُ مَنْ يتفقَّدُ أحوالَ مَـن حـولَـه وما حوْلَه

التّعبيرُ بصيغة الماضي في قوله تعالى: ﴿وَجَدَهَا﴾، مع إيثار مادّةِ الوُجدان يُلمحُ إلى وعيِ ذي القرنيْن، وتفقُّدِه أحوالَ جميعِ مَن حولَه وما حولَه، ومعنى ﴿وَجَدَهَا﴾؛ أي: "فيما يُحسّ بحاسّة لمسه، كما أحسّه بحاسّة بصره، من حيث إنّه متّصلٌ بما وصلَ إليه بيده، لا حائلَ بينه وبينه"[2]، و"هذا الّذي رآه أمرٌ ناشئٌ في وُجدانِه وخيالِه، وليس من الحقائق الواقعة، فما أجملَ تعبيرَ القرآن بقوله: ﴿وَجَدَهَا﴾! وما أحْراه بالإجلالِ والاعتبارِ!"[3].

دلالةُ التّعبيرِ بالمضارع ﴿تَغْرُبُ﴾:

تـجـدّدُ غـروبِ الـشّـمـسِ آيـةٌ مـن آيـاتِ الله العُظمَى

التّعبيرُ عن غروبِ الشّمس بصيغةِ المضارعة، في قوله تعالى: ﴿تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾، مطابقٌ تمامَ المُطابَقةِ لحركة الشّمسِ المتجدِّدةِ، يومًا بعد يوم، حيث يتجدّدُ طلوعُها كلَّ صباح، ويتجدّدُ غروبُها كلَّ مساء، وقد رأى ذو القرنيْن تلك الآيةَ الرّبانيّةَ في مُلكِه، وتبصّرَها وتدبّرَها، بقرينة الفعلِ ﴿وَجَدَهَا﴾.

بلاغةُ الجناسِ بين ﴿مَغْرِبَ﴾ و﴿تَغْرُبُ﴾:

الـغـروبُ يُـؤذنُ بالشّروقِ بقانون اطّـــرادِ دورانِ الأرض

بين كلمتَيْ: ﴿مَغْرِبَ﴾ في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ﴾، و﴿تَغْرُبُ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ جناسُ اشتقاقٍ؛ فاللّفظتان مختلفتان في الدّلالةِ مع أنّهما تعودان إلى جَذرٍ لغويٍّ واحدٍ، وذلك يُدخلهما تحت عُنصر إثراء المعاني تحت ظل واحد، وهذا هو الّذي استنبطَه إمامُ البلاغيّين، حيث

(1) الآلوسي، روح المعاني: 8/ 352.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 130.
(3) مجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 6/ 919.

يقول: "كأنّه يخدعُك عنِ الفائدة وقد أعطاها، ويوهمُك كأنّه لم يَزِدْك، وقد أحسنَ الزّيادةَ ووفّاها"[1].

دلالةُ حرفِ الجرِّ ﴿فِي﴾ في الآية:

احتواءُ العينِ الحمئةِ للشّمسِ حالَ غروبِها

يفيدُ حرفُ ﴿فِي﴾ في جملةِ ﴿تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ الظّرفيّةَ، فهي فعلًا نزلتْ وغابتْ وغربتْ في هذه العينِ، فيما يرى الرّائي، وهكذا كلُّ راءٍ يرى الشّمسَ تغرُبُ فيما ينتهي إليه بصرُه لحظةَ نزولِها، فعبّرَ بحرف الوعاءِ، أو" أنّ ﴿فِي﴾ هنا بمنزلة (عند)، كأنّها مُسامتةٌ[2] منَ الأرض فيما يرى الرّائي لـ ﴿عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾، وقال بعضُهم: قولُه: ﴿فِي عَيْنٍ﴾، إنّما المرادُ أنّ ذا القرنيْن كان فيها، أي هي آخرُ الأرض ... وظاهرُ هذه الأقوال تخيّلٌ"[3].

سرُّ التّعبير بـ﴿عَيْنٍ﴾ في السّياقِ:

الرّائي للبحرِ يظنُّ أنّ الشّمسَ تغربُ في الماء

وذلك عند قوله تعالى: ﴿تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾، فيوردُ بعضُ المفسّرين أنّ وُجدانَ الشّمسِ في ناحيّة المغربِ تتراءى، وكأنّها تغربُ في الماء؛ لأنّ مطمحَ بصرِ الرّائي، معلّقٌ بالماء وحدَه، فيرى الشّمسَ، وكأنّها تغيبُ فيه، نظرًا لمحدوديّة الرّؤيةِ عندَ الإنسان، والّتي لا يُجاوزُ فيها الرّائي الأفقَ المندرجَ في مجال الإبصارِ أمامَه، فيُدركُ ما يُتاحُ لبصره، ولذلك فإنّ واقعَ المرئيّاتِ منَ الموجودات، أنّ رؤيتَها تتحدّدُ بما يكونُ في مرأى العين، بحيث يرى راكبُ البحر غروبَ الشّمس في الماءِ، ومن في الصّحراءِ أوِ الجبالِ أوِ البيوتاتِ يراها كأنّها تغيبُ في تلك المرئياتِ، والواقعُ العلميُّ المحسوسُ خلافُ ذلك[4]، وذو القرنيْن بلغ ساحلَ المحيط فوجد الشّمسَ كأنّها تغربُ في عينٍ حمئةٍ، ولم يكن في مجال بصرِه إلّا الماءُ المنبسطُ، فقال تعالى: ﴿وَجَدَهَا تَغْرُبُ﴾،

(1) الجرجانيّ، أسرار البلاغة، ص: 8.
(2) "سامَتَهُ مسامتة بمعنى قابلَه ووازاه"، الفيّومي، المصباح المنير: 1/ 287.
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/ 539.
(4) الكرماني، لباب التفاسير، ص: 1297.

ولم يَقُلْ: كانت تغربُ[1]؛ لأنّ وصفَ غروبِها في العينِ الحمئةِ مُتعلِّقٌ ببصرِه لا بحقيقةِ غروبِ الشّمس، وفقَ قانونِها الفَلكيِّ المألوفِ.

سرُّ وصْفِ العين بـ﴿حَمِئَةٍ﴾:

الجانبُ الغربيُّ يحيطُ به البحرُ، وهو موضعٌ شديدُ الحرارةِ

في مفردةِ ﴿حَمِئَةٍ﴾ مطابقةٌ دقيقةٌ لتصوُّرِ ذي القرنيْن تلكَ البُقعةَ منَ البحرِ حينئذٍ؛ أي: إنّ منطقةَ مغيبِ الشّمس، وبُقعتَها المحيطةَ بقُرْصِها حينَ الغروبِ، فـ "كأنّها تغربُ في عينٍ وهْدةٍ مُظلمةٍ، وإن لم تكن كذلك في الحقيقةِ"[2]، وفي وصفِ ﴿عَيْنٍ﴾ بـ ﴿حَمِئَةٍ﴾ "إشارةٌ إلى أنّ الجانبَ الغربيَّ منَ الأرضِ قد أحاطَ به البحرُ، وهو موضعٌ شديدُ السُّخونةِ"[3]، ولعلّ ذا القرنيْن قد بلغ بحرَ الخَزَر، وهو بحيرةُ قزوينَ، وهي واقعةٌ غرب بلادِ الصّين[4].

سرُّ تكرارِ الفعلِ (وَجَد):

القائدُ الجادُّ مَن يضبطُ الأمورَ على وفقِ شرعِ العزيزِ الغفورِ

تكرارُ الفعل (وَجَد): في جملة: ﴿وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا﴾، يقرّرُ يقَظةَ ذي القرنيْن إلى تفاصيلِ ما يجري في تلك البقاعِ من أحداثٍ، وذلك يدعمُ صدْقَه في ضبط الأمور، على وفقِ شرع اللّه تعالى، الّذي كان يحكمُ به، ويعملُ على إقرارِه هناك.

دلالةُ عوْدِ الضّميرِ في ﴿عِندَهَا﴾:

تحديدُ الوصولِ لأقصى المكانِ، بيانٌ للجهدِ المبذولِ في ذلك الزّمانِ

"الضّميرُ في قوله ﴿عِندَهَا﴾ ... فيه قولان: الأوّل: أنّه عائدٌ إلى ﴿ٱلشَّمْسِ﴾ ويكونُ التّأنيثُ للشّمس؛ لأنّ الإنسانَ لمّا تخيّل أنّ الشّمسَ تغربُ هناك، كان سكانُ هذا الموضعِ كأنّهم سكنوا بالقُربِ منَ الشّمس، والقولُ الثّاني: أن يكونَ الضّميرُ عائدًا إلى العين الحاميةِ"[5]، "أي: ووجدَ ذو القرنيْن في طرفِ الأرض من

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/ 291.
(2) الفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 21/ 496.
(3) الفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 21/ 496.
(4) ابن عاشور: التّحرير والتّنوير: 16/ 25.
(5) الفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 21/ 496.

ناحية المغربِ قومًا عند العين الّتي تخيّلَها، وتخيّلَ أَنّ الشّمسَ تغربُ فيها"[1].

الغرضُ من تنكيرِ لفظِ ﴿قَوۡمٗا﴾:

التّنكيرُ يتناغمُ مع التّركيبِ المُنيفِ لإبرازِ الغرضِ اللّطيفِ

المقصودُ بـ ﴿قَوۡمٗا﴾: أي: "أُمَّةً مِنَ الأُمَمِ، ذَكَروا أَنَّها كانَت أُمَّةً عَظيمَةً من بني آدمَ"[2]، "قال ابنُ جريجٍ: مدينةٌ لها اثنا عشرَ ألفَ بابٍ، يقالُ إنّها الجاسوسُ واسمُها بالسّريانية (حريحسا) سكَنَها قومٌ من نسل ثمود"[3]، أو أنّ "تنكيرَ ﴿قَوۡمٗا﴾ يُؤْذِنُ بأنَّهم أمّةٌ غيرُ معروفةٍ ولا مألوفةٍ حالةُ عقائدِهم وسيرتِهم"[4]، وقد يترجمُ تنكيرُ ﴿قَوۡمٗا﴾ ضحالةَ حالِهم، وأنّهم "عراةٌ منَ الثّياب، لباسُهم جلودُ الصّيد وطعامُهم ما لَفَظ البحرُ"[5].

دلالةُ الاستئناف بقوله: ﴿قُلۡنَا يَٰذَا ٱلۡقَرۡنَيۡنِ﴾:

القولُ منَ الله لذي القرنين إمّا وحيٌ أو إلهامٌ

"جملةُ ﴿قُلۡنَا يَٰذَا ٱلۡقَرۡنَيۡنِ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ لما أشعرَ به تنكيرُ ﴿قَوۡمٗا﴾، من إثارة سؤالٍ عن حالهم وعمّا لاقاه بهم ذو القرنيْن"[6]، و"هذا القولُ له إن كان نبيًّا فهو وحيٌ، وإن كان وليًّا فهو إلهامٌ"[7]، فـ "أوصى اللّه تعالى إليه، أو ألهمَه اللّه تعالى"[8] إيّاه، "واستدلَّ بعضُ النّاس على أنّ ذا القرنيْن نبيٌّ، بقوله تعالى: ﴿قُلۡنَا يَٰذَا ٱلۡقَرۡنَيۡنِ﴾"[9].

دلالةُ الإسنادِ إلى ضمير العظمةِ في ﴿قُلۡنَا﴾:

خطابُ اللهِ عبادَه بضمير الجمعِ تأكيدٌ لعظمةِ الخطابِ

ضميرُ العظمةِ المتّصلُ في جملة ﴿قُلۡنَا﴾، يرجعُ إلى ضمير العظمةِ المنفصلِ في مطلعِ الآية السّابقةِ: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾،

(1) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 6/ 919.
(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 5/ 193.
(3) الخازن، لباب التّأويل: 3/ 176.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 26.
(5) النسفي، مدارك التنزيل: 2/ 317.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 26.
(7) الدرة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه: 5/ 532.
(8) السمرقندي، بحر العلوم: 2/ 360.
(9) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/ 539.

كما يرجعُ إليه ضميرُ العظمةِ في ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ مِن كُلِّ شَيۡءٖ سَبَبٗا﴾، وهو الله ﷻ إذ يقُصُّ على رسوله سيّدِنا محمّدٍ ﷺ، ولأنّه العظيمُ - ﷻ، وتقدّست أسماؤه - أسنِدتِ الأفعالُ ﴿قُلۡنَا﴾، ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ﴾ إلى ضمير العظمَةِ المستحقِّ له دونَ سواه.

الغرضُ منَ التّعبيرِ بالنّداءِ في قوله: ﴿يَٰذَا ٱلۡقَرۡنَيۡنِ﴾:

من مفاخرِ العبدِ أن يناديَه الله تعالى باسْمِه أو وصْفِه

نداءُ ذي القرنيْن، في جملة: ﴿يَٰذَا ٱلۡقَرۡنَيۡنِ﴾، يحملُ شاراتِ التّشريفِ وأماراتِ التّكريم؛ لأنّه أوّلًا: صادرٌ منَ الملك الأعلى ﷻ، وثانيًا: لأنّه جاء بأداة نداءِ البعيدِ (يا) برغم قُرْبِه من ربّه ﷻ الّذي ﴿وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ﴾ [البقرة: 255]، كشفًا عن بُعد مكانتِه عند ربّه ﷻ ومدى حفاوةِ ربّه تعالى به.

دلالة النداء باللقب في ﴿يَٰذَا ٱلۡقَرۡنَيۡنِ﴾:

الإشادةُ بالصّفةِ بيانٌ لتميّزِها ورفعةِ قدرِ المتّصفِ بها

المرادُ بنداء ذي القرنيْن: ﴿يَٰذَا ٱلۡقَرۡنَيۡنِ﴾ الإشادةُ بتلك الصِّفَةِ من صفاتِه، الّتي تمدحُ جهادَه واجتهادَه في الطّاعة: ﴿يَٰذَا ٱلۡقَرۡنَيۡنِ﴾، ولم يُنادِه باسْمه الصّريح، لفواتِ تلك الإشادةِ حينئذٍ، ومعلومٌ أنّ نداءَ الشّخص بصفةٍ من صفاتِه الطّيّبةِ يزيدُه سعادةً، ويُضفي عليه البهاءَ.

دلالةُ التّخييرِ في قوله: ﴿إِمَّآ﴾ و﴿وَإِمَّآ﴾:

الإلماحُ إلى قدرةِ ذي القرنيْن على اختيارِ أصلحِ الخيارَيْن

معنى ﴿إِمَّآ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمۡ حُسۡنٗا﴾ تفيدُ التّخييرَ، فقد "خُيِّرَ بين أن يُعذّبَهم بالقتل، إنْ أصرّوا على أمرِهم، وبيْن أن يتّخذَ فيهم حسنًا بإكرامِهم، وتعليم الشّرائع إن آمنوا، أوِ التّعذيبِ بالقتل واتّخاذِ الحُسن بالأسر؛ لأنّه بالنّظر إلى القتلِ إحسانٌ"[1]، ودلالةُ التّخيير كاشفةٌ عن قدرتِه على اختيارِ ما يحقّقُ المصلحةَ، لذا جاء الاختيارُ بعده دالًّا على حكمتِه وعلوِّ ديانتِه.

(1) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 2/ 317.

دلالةُ استعمالِ ﴿أَن﴾ المصدريّةِ في السّياق:

إظهارُ ما يتّسمُ به ذو القرنيْن من كفاءةٍ واقتدارٍ

تدلُّ ﴿أَن﴾ في قوله تعالى: ﴿إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾ على معنى المصدريّةِ؛ وفي ذلك "مبالغةٌ بجعل المصدرِ صفةً للأمر، والمرادُ دعوتُهم إلى الحقّ وتعليمُهم الشّرائعَ"[1]، والمصدريّةُ هنا تتآزرُ مع التّخييرِ المطلقِ، الّذي منحه الله تعالى ذا القرنيْن؛ بناءً على علمِه ﷻ منه قوّةَ العقيدةِ وصفاءَها، ونورَ العقل وكمالَه، وعُلوَّ الهمّة وتمامَها.

بلاغةُ المَجازِ المُرسلِ في ﴿تُعَذِّبَ﴾:

الأمورُ بالعواقبِ، والتّعبيرُ في التّخييرِ بالمسبَّبِ عنِ السّببِ

في قوله تعالى: ﴿إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ﴾ مجازٌ مرسَلٌ علاقتُه المسبَّبيَّةُ؛ حيث ذُكر المسبَّبُ مباشرةً – وهو هنا التّعذيبُ – عن سببِه – وهو رفْضُ الإيمان –، والمعنى: إمّا أن تجازي الكافر بالعذاب، والمحسن بالإحسان، فعبّرَ في التّخيير بالمسبَّبِ عنِ السّبب[2]، ووراء ذلك تلويحٌ بالعواقبِ لأنّها الأبقَى؛ إذِ الأمورُ بنتائجِها، كما قالوا: "مَنْ طلب الرّاحةَ ما يُعْقبْ تعَبًا"[3]، فالعواقبُ ثمارٌ تدومُ، بخلاف الأعمالِ الّتي هي أسبابُها.

سرُّ الفعلِ ﴿تُعَذِّبَ﴾ مُسْندًا إلى ذي القرنيْن:

من تكريمِ اللهِ تعالى للعبدِ تفويضُه في بعضِ اختصاصاتِه

العذابُ المقصودُ في قوله تعالى: ﴿إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ﴾ "يعني: أن تَقتُلَ"[4]، "يريد: إمّا أن تقتلَهم إنْ أبَوا ما تدعوهم إليه، وإمّا أنْ تأسرَهم، فتعلِّمَهم الهديَ، وتبصِّرَهم الرّشادَ، قال قتادة: قضَى فيهم بقضاء الله تعالى وكان عالمًا بالسّياسةِ"[5]، على أنّ العذابَ – بمعناه المطلقِ – منِ اختصاصاتِ الخالقِ العظيمِ ﷻ، فتفويضُه ﷻ ذا القرنيْن فيه من عظيم تكريمِه ﷻ لهذا العبدِ المبارَكِ.

(1) الشّوكانيّ، فتح القدير: 3/ 364.
(2) التّوحيديّ، البحر المحيط: 7/ 222.
(3) الجرجانيّ، أسرار البلاغة، ص: 28.
(4) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 2/ 360.
(5) الواحديّ، التّفسير الوسيط: 3/ 165.

لطيفةُ تقديمِ خيارِ التّعذيبِ على الإحسان:

مِـنَ النّاس مَن يُـجْـدي معه الـتّرهـيـبُ أبلغَ ممّا يُجدي معه التّرغيبُ

صُدّر التّخييرُ لذي القرنيْن، بتقديم خيارِ "التّعذيب؛ لأنّه الّذي يَستحقّونَه في الحال لكفرِهم"[1]، كذلك فيه تهديدٌ لهم؛ لعلّهم يَحذرون العقابَ الّذي قد يصلُ إلى القتل، و"دلّ ذلك أيضًا على أنّ أحوالَهم، كانت في فساد من كفرٍ، وفسادِ عملٍ"[2]، والكفرُ أكبرُ ذنبٍ يَحملُه الإنسانُ على كاهلِه في حياتِه؛ لأنّه مواجهةُ المُنعِم بأعظمِ العطاءِ، بنُكرانِ الجميلِ، والتّأبّي على عبادتِه، والانصياعِ لأوامرِه وهدايتِه، ولهذا وجدنا القرآنَ الكريمَ يُشدّدُ في التّشنيعِ على الكفَرةِ، ويبشّعُ اعتقادَهم وأفعالَهم كلّما ذُكروا في السّياقِ المُحكَم.

دلالةُ التّعبيرِ بالفعلِ المضارع ﴿تَتَّخِذَ﴾:

أحسنُ الحسنِ ما كان تجديدًا بعدَ تجديدٍ

في إيثارِ صيغةِ المضارعة ﴿تَتَّخِذَ﴾ مناغاةٌ لإيثارِ صيغةِ الاسم ﴿حُسْنًا﴾؛ ذلك أنّ في هذه المضارعة، دعوةً لذي القرنيْن، أن يُجدِّد فيهم حُسنًا بعد حسن، وألّا يَمَلَّ من اعتمادِ منهجِ الرّفقِ الرّفيقِ بخلْقِ اللّه تعالى كلّما اقتضَى الأمرُ، ويَدْعمُ عطاءَ المضارعة اصطفاءُ مادّة ﴿تَتَّخِذَ﴾؛ إذِ الاتّخاذُ "أخذُ الشّيء لأمرٍ يستمرُّ فيه"[3].

سِرُّ تقديمِ ﴿فِيهِمْ﴾ على المفعولِ ﴿حُسْنًا﴾:

من قيَمِ القرآنِ الكريمِ، الدّعوةُ إلى الـرّفـقِ في الدّعوةِ

في تقديم القيْدِ ﴿فِيهِمْ﴾، عنايةٌ بهم، ودعوةٌ إلى الرّفق في الدّعوة، والصّبرِ عليهم حتّى يبيِّنَ لهمُ الحقَّ؛ فذلك أدْعى أن يتّبعوه، فليس من مبادئِ الدّين التّعجيلُ بالعقوبة، يقول تعالى: ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾﴾ [النّساء: 147]، والضّميرُ في القيدِ بالجارّ والمجرور ﴿فِيهِمْ﴾ يعودُ إلى الفريق الّذي يُصرُّ على كفرِه، من أولئك القومِ الّذين فوّضَ اللّه تعالى الحُكمَ فيهم إلى ذي القرنيْن.

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 355.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 26.
(3) العسكريّ، معجم الفروق، ص: 29.

سرُّ التّعبيرِ بجملة ﴿أَن تَتَّخِذَ﴾ مع المصدرِ ﴿حُسْنًا﴾:

التّعبيرُ بالمصدرِ يَهدي للخيارِ الأحسنِ

آثرَ النّظمُ الكريمُ صياغةَ ﴿أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾ دونَ (أنْ تُحْسِنَ إلَيْهِم) - مثلًا - "مبالغةً في الإحسانِ إليهم؛ حتّى جعلَ كأنّه اتّخذ فيهم نفسَ الحُسن، مثل قوله تعالى: ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: 83]، وفي هذه المبالغةِ تلقينٌ لاختيارِ أحدِ الأمرين المخيَّرِ بينهما"(1)، وعبّرَ بالمصدر ﴿حُسْنًا﴾ دون الفعل (تُحْسِنُ)؛ لما هو معلومٌ، من إفادة الاسمِ الثّبوتَ والدّوامَ؛ فكأنّ هذا التّركيبَ: ﴿وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾ يُلمحُ إليه، بأنّ اتّخاذَ الحُسنِ أولى، ومن قيمِ الدّين الحقِّ: "ما كانَ الرِّفْقُ في شَيْءٍ إلّا زانَهُ"(2).

لطيفةُ تنكيرِ ﴿حُسْنًا﴾ ومعناها في السّياق:

تكريمُ المحسنِ ومعاقبةُ المُسيءِ متروكٌ للحاكمِ العادلِ

في تنكيرِ ﴿حُسْنًا﴾ تنبيهٌ إلى أنّ حجْمَ ما أُمِر أن يَتّخذَه فيهم منَ الحُسن متروكٌ إلى تقديرِه في آحادِهم؛ فالمؤمنون يَستأهلون ﴿حُسْنًا﴾ عظيمًا، وتنكيرُ ﴿حُسْنًا﴾ يفيدُه، ولا يمنعُ منه، والكافرون يترفّقُ بهم، غير أنّه لا يَغمُرهم بحُسنٍ غمرَه المؤمنين؛ فحسنُه فيهم بحسب أصولِ الدّعوةِ، فهو حسنٌ محدودٌ بحدودٍ، ومعنَى ﴿حُسْنًا﴾، في قوله تعالى: ﴿وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾، "أي: أمرًا ذا حُسْن على حذف المضافِ، أو على طريقةِ إطلاقِ المصدر على موصوفه مبالغةً، وذلك بالدّعوةِ إلى الإسلام والإرشادِ إلى الشّرائع"(3).

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الحَمِئَة والحامية:

الحمِئةُ الطّينُ المخصوصُ، والحارّةُ الملتهبةُ

الحَمِئَة منَ الحَمَأ، وهو الطّينُ الأسودُ المُنْتنُ، وفي التّنزيل: ﴿مِّنْ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 16/ 26.
(2) ابن حنبل، مسند أحمد: 21/ 167، مُسْنَدُ أَنَسِ بْنِ مالِكٍ، برقم (13531).
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 242.

حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾﴾ [الحجر: 26]"[1]، أمّا الحامية فهي الحارّةُ، قال تعالى: ﴿فِي عَيْنٍ حَامِيَةٍ﴾ "أي: حارّةٍ، وقُرئ: ﴿حَمِئَةٍ﴾، وقال ﷻ: ﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾ [التّوبة: 35]"[2].

(1) الخليل، العين: (حمو).
(2) الرّاغب، المفردات: (حمى).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثلاثون،
سورة الكهف من الآية 37 إلى سورة مريمَ الآية 12
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثلاثون، سورة الكهف من الآية 37 إلى سورة مريمَ الآية 12
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 30 ، 804 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-27-2
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 30 : المجلد الثلاثون، سورة الكهف من الآية 37 إلى سورة مريمَ الآية 12.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-27-2
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9725630 بتاريخ 2024/11/04م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»